الفصل السادس

الدعاء عند مقابر الصالحين

روى أبو على الموصلى بسنده حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا يزيد بن الحباب حدثنا جعفر بن ابراهيم «من ولد ذى الجناحين» حدثنا على بن عمر عن أبيه عن على بن الحسن«أنه رأى رجلاً يجيء إلى فُرجه كانت عند قبر النبى ﷺ، فيدخل فيها فيدعو، فنهاه. فقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبى عن جدى عن النبى ﷺ؟ قال: لاتتخذوا قبرى عيداً، ولا بيوتكم قبوراً،فإن تسليمكم يبلغنى أينما كنتم»[1].

وروى الترمذى عن معاذ رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يكره أن توطأ القبور إعظاماً للمسلمين وإكراماً لهم، ويكره أن تتخذ القبور مسجداً وقِبْلَة يُصلى إليها. وقد جاء على لسان النبى ﷺ مايدل على أن بنى إسرائيل بلغوا فى ذلك كله القدح المعلى «لعن الله بنى إسرائيل اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» والأصل فى عبادة الأصنام أنها كانت هكذا.

رأى له مؤيدوه[2]:

فكثيراً مايضمر الإنسان فى نفسه أمراً وهو لايشعر به، وكثيراً ماتشتمل نفسه على عقيدة خفيه لايحس باشتمال نفسه عليها ولاأرى مثلاً لذلك أقرب من المسلمين الذين يلتجئون فى حاجاتهم ومطالبهم إلى سكان القبور، ويتضرعون إليهم تضرعهم للإله المعبود، فإذا عتب عليهم فى ذلك عاتب قالوا إنا لانعبدهم وإنما نتوسل بهم إلى الله، كأهم لايشعرون أن العبادة ماهم فيه، وإن أكبر مظهر

(١) وأخرجه محمد بن عبد الواحد المقدسى الحافظ فى مستخرجه.

(٢) د. موسى الخطيب.

لألوهية الإله المعبود أن يقف عباده بين يديه ضارعين خاشعين يلتمسون إمداده ومعونتهم، فهم فى الحقيقة عابدون لأولئك الأموات من حيث لايشعرون.

وقال الإمام العلامة مولانا الألوسى «قدس سره» فى تفسيره روح المعانى عند قوله تعالى فى سورة يونس: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[1] «وأيا ماكان فالآية دالة على أن المشركين لايدعون غيره تعالى فى تلك الحالة، وأنت خبير بأن الناس اليوم إذا اعتراهم أمرخطير وخطب جسيم فى بر أو بحر دعوا من لايضر ولا ينفع ولايرى ولا يسمع، فمنهم من يدعو الخضر وإلياس، ومنهم من ينادى أبا الخميس والعباس، ومنهم من يستغيث بأحد الأئمة ومنهم من يضرع إلى شيخ من مشايخ الأمة، ولاترى أحداً فيهم إلا القليل يخص مولاه بتضرعه ودعاه، ولايكاد يمر له ببال أنه لو دعا الله تعالى وحده ينجو من هاتيك الأهوال، فبالله تعالى أى الفريقين من هذه الحيثية أهدى سبيلاً، وأى الداعين أقوم قيلاً، وإلى الله سبحانه المشتكى من زمان عصفت فيه ريح الجهالة، وتلاطمت أمواج الضلالة وغرقت سفينة الشريعة، واتخذت الإستعانة بغير الله تعالى للنجاة ذريعة وتعذر على العارفين الأمر بالمعروف، وحالت دون النهى عن المنكر صنوف الخوف» انتهى

وحديث ابن عباس[2] وإذا استعنت فاستعن بالله، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾[3] الآية .. وقوله تعالى ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[4] انتهى.

---

(١) يونس: ٢٢..

(٢) عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: كنت خلف النبى ﷺ يوماً فقال: «ياغلام إنى أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف» رواه الترمذى وقال: حديث صحيح».

(٣) الزمر: ٤٥..

(٤) الإسراء: ١١٠.

وقال الإمام زين العابدين السّجاد: «كيف يسأل محتاج محتاجاً» وقال الإمام الغزالي: «المؤمن لايجعل بينه وبين الله تعالى وسائط في الطلب» قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[1].

لقد جاء الإسلام بعقيدة التوحيد ليرفع نفوس المسلمين ويغرس في قلوبهم الشرف والعزة والأنفة والحمية وليعتق رقابهم من رق العبودية فلا يذل صغيرهم لكبيرهم ولايهاب ضعيفهم قويهم، ولايكون لذى سلطان بينهم سلطان إلا بالحق والعدل، وقد ترك الإسلام بفضل عقيدة التوحيد ذلك الأثر الصالح في نفوس المسلمين في العصور الأولى، فكانوا ذوى أنفة وعزة وإباء وغيرة، يضربون على يد الظالم إذا ظلم، ويقولون للسلطان إذا جاوز حده في سلطانه قف مكانك، ولاتغلُ في تقدير مقدار نفسك، فإنما أنت عبد مخلوق لاربٌ معبود، واعلم أنه لاإله إلا الله.

هذه صورة من صور نفوس المسلمين في عصر التوحيد، أما اليوم وقد داخل عقيدتهم ماداخلها من الشرك الباطن تارة، والظاهر أخرى فقد ذلت رقابهم، وخفقت رؤوسهم، وضرعت نفوسهم، وفترت حميتهم، فرضوا بخطة الخسف، واستناموا إلى المنزلة الدنيا فوجد أعداؤهم السبيل إليهم، فغلبوهم على أمرهم، وملكوا عليهم نفوسهم وأموالهم ومواطنهم وديارهم فأصبحوا من الخاسرين.

والله لن يسترجع المسلمون سالف مجدهم، ولن يبلغوا ما يريدون لأنفسهم، من سعادة الحياة وهناءتها إلا إذا استرجعوا قبل ذلك ماأضاعوه من عقيدة التوحيد.

إن الله أغيرعلى نفسه من أن يسعد أقواماً يزدرونه ويحتقرونه، ويتخذونه وراءهم ظهرياً، فإذا نزلت بهم جائحة، أو ألمت بهم ملمة ذكروا الحجر قبل أن يذكروه، ونادوا الجذع قبل أن ينادوه!

---

(١) ق: ١٦

ثم تعال معى نتأمل سوياً قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾[1].

وقوله مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[2] وقوله على لسان نبيه ﷺ: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا﴾[3].

فهل يكون الأولياء.. أكرم عند الله وأعظم وسيلة إليه من الأنبياء والمرسلين؟! هل تعلم أن النبى ﷺ حينما نهى عن إقامة الصور والتماثيل نهى عنها عبثاً ولعباً، أم مخافة أن تعيد للمسلمين جاهليتهم الأولى! وأى فرق بين الصور والتماثيل وبين الأضرحة والقبور، مادام كل منها يجر إلى الشرك ويفسد عقيدة التوحيد؟!

حوار لابد منه[4]:

قال صاحبى: على رسلك ياأخى .. لماذا كل هذا؟

قلت: وهل بعد هذا بيان؟

قال: أنا لست معك فيما تقول.. بل إنى أخالفك الرأى فيما ذهبت إليه وقد عودتنا أن تقول الرأى وتستمع إلى الرأى الآخر.. فهل عندك مانع من أن تسمع وجهة نظرى.. **قلت:** لابأس.. أسمع.

قال: أخرج الديلمى قوله ﷺ: «من أراد التوسل بى وأن يكون له عندى يد أشفع بها يوم القيامة فليصل أهل بيتى ويُدخل السرور عليهم»، وأخرج الإمام أحمد أن النبى ﷺ أخذ بيدى الحسن والحسين وقال: «من أحبنى وأحب هذين وأمهما وأباهما كان معى فى درجتى يوم القيامة» وقال ﷺ: «حُسين منى وأنا من حُسين، اللهم أحب من أحب حسيناً، حُسين سبط من الأسباط».

---

(١) النمل: ٦٥.
(٢) الأنفال: ١٧.
(٣) الاعرف: ١٨٨.
(٤) كاتب الحوار: الدكتور موسى الخطيب

وأخرج ابن النجار فى تاريخه أن النبى ﷺ قال: «الكل شىء أساس وأساس الإسلام حب رسول الله ﷺ وحُب أهل بيته».

وقال ﷺ: «أهل بيتى أمان لأمتى».

وأخرج الديلمى: «أثبتكم على الصراط أشدكم حُباً لأهل بيتى وأصحابى».. وعن على كرم الله وجهه: «أدبوا أولادكم على ثلاث خصال.. حُب نبيكم، وحُب أهل بيته، وقراءة القرآن».

قال تعالى: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾[1].

قلت: الحق فى تفسير هذه الآية هو مافسرها به حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما كما رواه عنه البخارى قال حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبه عن عبد الملك بن ميسرة قال سمعت طاووساً يحدث عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد. فقال ابن عباس: عجلت إن النبى ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة فقال إلا أن تَصِلوا مابينى وبينكم من القرابة[2].

لقد كان للنبى ﷺ قرابة فى جميع بطون قريش ولماأرسله ربه وكذبوه وآذوه أمره سبحانه أن يقول لهم:

ياقوم إن رفضتم الإيمان برسالتى فلا أطلب منكم إلا أن تكفوا إيذاءكم عنى، وتتركونى وشأنى مع غيركم، مراعين بذلك حق القرابة وصلة الرحم التى بيني وبينكم، فلا تؤذونى ولايصح أن يكون غيركم من العرب أحفظ لكرامتى منكم، ولاتنكر الوصاة بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وُجد على وجه الأرض فخراً وحسباً ونسباً

---

(١) الشورى: ٢٣

(٢) تفرد به البخارى.

ولاسيما إذا كانوا متبعين للسُنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية، كما كان عليه سلفهم كالعباس وبنيه وعليّ وأهل بيته وذريته رضى الله عنهم أجمعين[1].

قال صاحبى: اعلم يا أخى أن الله سبحانه وتعالى هو المتصرف فى الكون بالمنع والإعطاء، وما الخلق من ملائكة وأنبياء وأولياء إلا وسائط وأسباب قد يجرى الله تعالى الخير على أيديهم من غير أن يكون لهم فى ذلك إيجاد ولاتأثير.

ولقد جاء فى بعض أحاديث الإسراء: أنه ﷺ لما أُسرى به وهو راكب البراق وبصحبته جبريل عليه السلام، سار حتى بلغوا أرضاً ذات نخل، فقال له جبريل: انزل فصل هنا، قال: فصليت ثم ركب وقال جبريل أتدرى أين صليت قلت: لا. قال: صليت بطيبة وإليها المهاجرة، فانطلق به البراق، فقال له جبريل: انزل فصل، قال: فصليت، فقال: أتدرى أين صليت قلت: لا، فقال: صليت بطور سيناء عند شجرة موسى حيث كلّمه ربه، ثم انطلق به البراق فقال له: انزل فصل، قال: فصليت، فقال: أتدرى أين صليت قال: صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى بن مريم «إلى آخر ماجاء فى الحديث» الذى ورد بروايات.

فيؤخذ من هنا أن كل موضع وأثر للأنبياء عليهم الصلاة والسلام يصلى فيه ويتبرك به ويحترم خصوصاً ماينسب لنبينا الكريم سيدنا محمد ﷺ الذى نحن من أمته ولله الحمد.

تبّرك الصحابة بآثار الرسول ﷺ:

ولقد حرص أصحاب الرسول ﷺ على آثاره الشريفة وكانوا يتبركون بها حتى أنهم كادوا يقتتلون على ما يتقاطر من أعضائه عليه الصلاة والسلام من الماء إذا توضأ وهو يرى ذلك ويقرهم عليه فكان ذلك دليلاً على جواز التبرك به شرعاً.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير.

روى الشيخان فى صحيحهما عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أنه قال: كنت عند النبى ﷺ وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة ومعه بلال، فأتى النبى ﷺ أعرابى: فقال: ألا تنجز لى ماوعدتنى، فقال له أبشر، فقال قد أكثرت على من أبشر فأقبل على أبى موسى وبلال كهيئة الغضبان فقال: «رد البشرى فاقبلا أنتما».. قالا: قبلنا ثم دعا بقدح فيه ماء فغسل يديه ووجهه ومج فيه، ثم قال: إشربا منه وافرغا على وجوهكما ونحوركما وأبشرا، فأخذا القدح ففعلا، فنادت أم سلمةمن وراء الستر أن أفضلا لأمكما فأفضلا لها منه طائفة[1].

وأخرج البخارى فى صحيحه فى «باب خاتم النبوة» بإسناده إلى الجعيد بن عبد الرحمن قال سمعت السائب بن يزيد قال: ذهبت بى خالتى إلى رسول الله ﷺ فقالت: يارسول الله إن ابن أختى وقع فمسح رأسى ودعا لى بالبركة وتوضأ فشربت من وضوئه.. إلخ.

وأخرج البخارى فى كتاب اللباس بإسناده إلى أبى جحيفة قال: أتيت النبى ﷺ وهو فى قبة حمراء من آدم «جلد» ورأيت بلالاً أخذ وضوء النبى ﷺ والناس يبتدرون الوضوء فمن أصاب منه شيئاً تمسح به ومن لم يصب منه شيئاً أخذ من بلل يد صاحبه للتبرك به لكونه مس جسده الشريف ﷺ.

وفى الصحيح أنه ﷺ كان إذا حلق دفع شعره إلى بعض أصحابه. كأبى طلحة الأنصارى ليفرقه على أصحابه للتبرك به.

التبرك بآثاره ﷺ كان أمراً شائعاً بين أصحابه:

وحرصهم على ذلك وإزدحامهم عليه حتى ينال منه أحدهم الشعرة والشعرتين فيه أقوى دليل على أن التبرك بآثاره ﷺ كان أمراً مطرداً شائعاً بين أصحابه رضى الله عنهم سائغاً شرعاً لإقرارهم عليه، فلاينكره إلا من لم تخالط قلبه بشاشة الإيمان (انتهى من زاد المسلم بزيادة).

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى «غزوة الطائف» وأخرجه مسلم فى كتاب فضائل الصحابة فى باب فضائل أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.

وفى الشفا كانت شعرات من شعره عليه السلام فى قلنسوة خالد بن الوليد رضى الله عنه فلم يشهد بها قتالاً إلا رُزق النصر «إنتهى من تاريخ الخميس» ببركته ﷺ، ولما سقطت عنه قلنسوته يوم اليمامة شد عليها شدة حتى أخذها فأنكر عليه بعض الصحابة ذلك قبل علمهم بمافيها من شعر رسول الله ﷺ، فقال خالد: لم أفعل ذلك لقيمة القلنسوة لكن كرهت أن تقع بأيدى المشركين وفيها شعر من النبى ﷺ فرضوا عنه وأثنوا عليه.

وأخرج البخارى فى كتاب اللباس بإسناده إلى إسرائيل بن يونس عن عثمان بن عبد الله مولى آل طلحة أنه قال أرسلنى أهلى إلى أم سلمة زوج النبى ﷺ بقدح من ماء «وقبض إسرائيل ثلاث أصابع» من فضة فيه شعر من شعر النبى ﷺ، وكان إذا أصاب الإنسان عين أو شيء إليها مخضبه فاطلعت فى الجلجل فرأيت شعراً حمراً»[1].

قال القسطلانى والحاصل من معنى هذا الحديث أن أم سلمة كان عندها شعرات من شعر النبى ﷺ حمر محفوظة للتبرك فى شيء مثل الجلجل وكان الناس يستشفون بها من المرض، فتارة يجعلونها فى قدح من ماء ويشربونه وتارة فى إجانة من الماء فيجلسون فى الماء الذى فيه الجلجل الذى فيه تلك الشعرات الشريفة (أ.هـ) هكذا كان دأب الصحابة وتابعيهم رضوان الله عليهم أجمعين.

وجاء فى الصحيحين عن سعيد بن المسيب أن أبا أيوب أخذ من لحية رسول الله ﷺ شيئاً فقال: لايصيبك السوء ياأبا أيوب، وفيه أيضاً: روى ابن السكن من طريق صفوان بن هبيرة عن أبيه قال: قال ثابت البنانى قال لى أنس بن مالك هذه شعرة من شعر الرسول ﷺ،فضعها تحت لسانى قال فوضعتها تحت لسانه فدُفن وهى تحت لسانه[2].

---

(١) قوله وقبض اسرائيل ثلاث أصابع إشارة إلى صغر القدح، وقال الكرمانى هو إشارة إلى عدد إرسال عثمان المذكور إلى أم سلمة. وقوله من فضه بيان لجنس القدح. وهذا ماذكره الحميدى فى الجمع بين الصحيحين كما نقله ابن حجر. وقوله فيه أى فى القدح، وقوله مخضبه هو من جمله الآنية.
والجلجل بضم الجيمين هو شيء يشبه الجرس يُتخذ من ذهب أو فضة، أو نحاس يوضع فيه ما يراد صيانته. وهذا الحديث أخرجه ابن ماجة فى اللباس من سننه أيضاً.
(٢) كتاب زاد المسلم جـ٥ ترجمة أبى أيوب الأنصارى.

وجاء فى كتاب «سيرة خير العباد المجردة من زاد المعاد» مانصه: وفى صحيح مسلم عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت: هذه جبة رسول الله ﷺ، فأخرجت جبة طياليسية خسروانية لها لبنة ديباج وفرجاها مكفوفان بالديباج فقالت: هذه كانت عند عائشة رضى الله عنها حتى قُبضت ، فلما قبضت قبضتها، وكان النبى ﷺ يلبسها فنحن نغسلها للمريض يستشفى بها «انتهى».

وقال صاحب العقد الفريد فى شأن وفاة معاوية رضى الله تعالى عنه: لما ثقل معاوية ويزيد غائب، أقبل يزيد فوجد عثمان بن محمد بن أبى سفيان جالساً فأخذ بيده ودخل على معاوية وهو يجود بنفسه، فكلّمه يزيد فلم يكلمه فبكى يزيد. ثم قال معاوية أى بنى إن أعظم ما أخاف الله فيه ماكنت أصنع بك. يابنى إنى خرجت مع رسول الله ﷺ فكان إذا مضى لحاجته وتوضأ أصب الماء على يديه، فنظر إلى قميص لى قد انخرق، فقال لى: يامعاوية ألا أكسوك قميصاً؟ قلت: بلى، فكان قميصاً لم ألبسه إلا لبسة واحدة وهو عندى، واجتز ذات يوم فأخذت جزازة شعره وقلامة أظفاره فجعلت عندى ذلك فى قارورة، فإذا مت يابنى فاغسلنى ثم اجعل ذلك الشعر والأظفار فى عينى ومنخرى وفمى ثم اجعل قميص رسول الله ﷺ شعاراً من تحت كفنى إن نفع شىء نفع هذا. أ.هـ.

وعن أم ثابت كبشة بنت ثابت أخت حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنهما قالت: دخل علىّ رسول الله ﷺ فشرب من قربة معلقة قائماً فقمت إلى فيها فقطعته[1] قال شارح هذا الحديث فى رياض الصالحين: وإنما قطعتها لتحفظ موضع فم رسول الله ﷺ وتتبرك به وتصونه عن الإبتذال أ.هـ.

وذكر فضيلة العلامة الشيخ حسنين مخلوف مفتى الديار المصرية السابق[2].. بعد الكلام عن غسل زينب بنت رسول الله ﷺ بعد وفاتها رضى الله تعالى عنها: وأنه ﷺ أمر النساء اللاتى تولين غسلها رضى الله تعالى عنهن أن يخبرنه بعد فراغهن من غسلها، فلما فرغن وأخبرته أعطاهن حقوة بفتح فكون أى إزاره ليجعلنه على جسدها ثم بعده الكفن.

---

(١) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح.

(٢) كتاب «فتاوى شرعية وبحوث إسلامية لفضيلة الشيخ حسنين مخلوف، ص ٣٥٧.

قال رحمة الله تعالى بعد الكلام على هذا الموضوع مانصه: وقد أعطاهن ﷺ إزاره الشريف وأمرهن أن يجعلنه الثوب الذى يلى جسدها لتنالها بركته ﷺ ببركة ثوبه، وإنما أخره ولم يناولهن إياه أولاليكون قريب العهد من جسده الشريف حتى لايكون بين انتقاله من جسده إلى جسدها فاصل، لاسيما مع قرب العهد بعرقه المبارك وهذا من أمارات حبه ورحمته وشفقته على ابنته. قال وفيه دليل على مشروعية التبرك بآثار الصالحين.

ويُروى أن الإمام أحمد بن حنبل كانت عنده ثلاث شعرات من الجسد الشريف فأمر أن توضع واحدة على عينه، والثانية على عينه الأخرى، والثالثة على فمه إذا كُفن تبركاً بآثاره ﷺ والله تعالى أعلم. أ.هـ[1].

فهل يليق بالمؤمن أن ينكر التبرك بآثار الرسول ﷺ وصحبه وسلم والصالحين؟

وانظر ماجاء أيضاً فى صحيح البخارى فى أواخر كتاب الجهاد والسير فى باب ماذكر من درع النبى ﷺ وعصاه وسيفه وقدحه وخاتمه، وماستعمل الخلفاء بعده من ذلك مما لم يذكر قسمته، ومن شعره ونعله وآنيته مما يتبرك فيه أصحابه وغيرهم بعد وفاته ﷺ.. راجع هذا الباب أيضاً لتزداد علماً ومعرفة ويقيناً.

فتأمل رحمنا الله وإياك عظيم حب الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين بل وجميع المسلمين لرسول الله ﷺ، وهم يحتفظون بآثاره عليه الصلاة والسلام ويتبركون بها فى حياته ﷺ وبعد موته.. فكيف يعترض بعض فئة من الناس فى هذا الزمان على الإحتفاظ بآثار رسول الله ﷺ والتبرك بها.

نسأل الله تعالى السلامة والعافية من الفتن ماظهر منها ومابطن.

وفى مختصر البخارى للقرطبى مانصه: قال أبوعبد الله البخارى رأيت قدح رسول الله ﷺ بالبصرة وشربت فيه، وكان اشترى من ميراث النضر بن أنس بثمانمائة ألف، فقد كان هذا القدح محفوظاً عند الصحابة والتابعين للتبرك بالشرب فيه ولم يُسمع عن أحد من الصحابة ولا من أئمة التابعين إنكار ذلك،

(١) المصدر السابق.

ولا الإستخفاف به. فكيف يتوهم أن هذا التبرك وشبهه منهى عنه أو خلاف الأفضل؟ أحرى أن يوصف فاعله بالضلال أعاذنا الله تعالى منه.

قال صاحبى: وبالقياس على ماسبق فإنه يجوز التبرك بآثار الصالحين والإنتفاع بها بعد موتهم وإنتقالهم إلى الدار الآخرة والفوائد فى هذا الباب كثيرة جداً لاتعد ولاتحصى.

ومن المعجزات الباهرة أن هذه الجموع العظيمة الآتية فى كل وقت وحين لزيارة النبى ﷺ لم يُسمع عن أحد منهم أنه عبد قبره الشريف، وهذا مصداق لقوله ﷺ ودعائه المتقبل عند حبيبه ومولاه جلّ فى علاه: «اللهم لاتجعل قبرى وثناً»[1].

وعن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم لاتجعل قبرى وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[2].

نعم لقد استجاب الله تعالى دعاء عبده ورسوله سيدنا محمد ﷺ، فلم يجعل قبره الشريف وثناً يعبد ، مع كثرة ازدحام الناس عليه فى كل وقت وحين، وماقصدهم من الزيارة إلا التقرب إلى الله تعالى ورسوله. إنهم من عظيم شوقهم وشدة محبتهم يتهافتون على القبر الشريف تهافت الظماء على ورود الماء. نعم إنهم يزدحمون على الرحاب الطاهرة الشريفة لأن الرحاب النبوية فيها الفيوضات المعنوية،والأنوار الباهرة القوية، وقد قيل فيه: «المورد العذب كثير الزحام» وهذا مثل الحجر الأسود الذى هو فى ركن الكعبة المعظمة، فإن الناس يزدحمون على تقبيله ازدحاماً لامثيل له فى مواسم الحج، ولم يُسمع قط أن أحداً عبد الحجر الأسود لا فى الجاهلية ولا فى الإسلام،ولاشك أن ذلك من كرامة الله تعالى على الحجر الأسود وعلى رسوله ﷺ وكذلك لم يُسمع أن أحداً عبد حجر مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام الذى هوعند الكعبة المشرفة من آلاف

---

(١) رواه مالك وابن أبى شيبة والبزاز.

(٢) رواه الإمام مالك فى الموطأ فى جامع الصلاة جـ١ ص١٤٣ ط. الحلبى القاهرة..

السنين، ولا أحد عبد نفس الكعبة المعظمة بيت الله الحرام لافى الجاهلية ولافى الإسلام.. فسبحان الله الذى يجعل سره فيما يشاء من خلقه وما أحسن دين الإسلام ذلك الدين لقيم.

وعن عبد الله بن دينار قال: رأيت عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يقف على قبر رسول الله ﷺ فيصلى على النبى ﷺ وعلى أبى بكر وعمر[1].

قال الإمام أبوحامد الغزالى رحمه الله فى كتاب «آداب السفر»: يجوز زيارة قبور الصالحين للإنتفاع بها لأن كل من يتبرك به فى حياته يجوز التبرك به بعد موته. قال: ويجوز شد الرحال لهذا الغرض ولا يعارضه حديث «لاتُشد الرحال إلا لثلاث مساجد» لتساوى المساجد فى الفضل دون الثلاثة وتفاوت العلماء والصُّلحاء فى الفضل فتجوز الرحلة عن الفاضل للأفضل» أ.هـ.

ونضيف أن شد الرحال مقصود به زيارة الصالحين لا المسجد ذاته والاجماع منعقد على أن هنالك حياة بعد الموت وإن كانت تختلف عن هذه الحياة الدنيا:

لاتظنوا الموت موتاً إنه لحياة وهو غايات المنى

لاترعكم هجمة الموت فما هو إلا نقلة من هاهنا

وكما أن الشهداء أحياء عند ربهم يُرزقون ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾[2].

---

(١) أى كان يقول كما نقول نحن اليوم: اللهم صلِّ على محمد وعلى آله وصاحبيه (أبى بكر وعمر) وسلم. وكان رضى الله عنه، لشدة كلفه بمتابعة آثار النبوة، يبالغ فى اقتفاء السُّنة، ولا يكتفى بمحاكاة الرسول والسير على نهجه، بل يذهب إلى شجرة الرضوان يتكىء إليها، ويجلس تحتها، ويستظل بظلها الوارف، لأنها شهدت تلك البيعة التى بايع المسلمون فيها نبيهم على السمع والطاعة والنصرة والفداء، ومجاهدة العدو وإعلاء كلمة الله، وسماها التاريخ «بيعة الرضوان» كما سمى الشجرة كذلك، لأن الله يقول فى أهلها ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ...﴾ ولم يقل أحد فى هذا الصنيع من عبد الله بن عمر إنه وثنيه، وإلا كان على الصحابة السلام..!!

(١) آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠..

فهؤلاء الأولياء الصالحون؛ أهل الإيمان والتقوى هم أهل السعادة وأرواحهم باقية ناعمة إلى يوم يبعثون وأرواح أهل الشقاوة معذبة إلى يوم الدين[1].

ومن ثم يجوز دعاء المؤمن الميت للمؤمن الحى: ويظهر ذلك من معنى حديث رسول الله ﷺ والقائل فيه: «تُعرض على أعمالكم أو أعمال أمتى يوم الاثنين من كل أسبوع فإن وجدت خيراً حمدت الله وإن وجدت غير ذلك استغفرت الله لكم».

وكذلك يجوز دعاء المؤمن الميت للمؤمن الميت:

وسند هذه الصورة هو الحديث السابق حيث لم يقيد الإستغفار فيه للمقصرين الأحياء من أمة المصطفى ﷺ، وعليه فيشمل الأموات أيضاً بطريق القياس والأولى عسى أن يكون الأموات فى أشد الحاجة إلى دعائه ﷺ للتخفيف عنهم فى القبر أو يوم القيامة.

قلت: غير أنى أرجح كون الحديث قاصراً على الأحياء لأن الدار الدنيا للتكليف وفى العمر متسع يستطيع الإنسان أن يتدارك مافاته.. وهذا لايمنع من القول بعموم الحديث للأحياء والأموات مستدلين بالرؤيا الصادقة التى يراها المسلم فتجىء كفلق الصبح نهاراً.

فكم من مؤمن رأى فى نومه المصطفى ﷺ أو بعض الصالحين فطلب منه الدعاء وإذا صحّ هذا فلا مانع من أن يرى المسلم الحى فى نومه ميتين يطلب أحدهما من الآخر أن يدعوا له، ولامانع من عقل أو شرع وبخاصة إذا عرفنا أن الأرواح لايعتريها الفناء، فهى كما علمنا بين التنعيم والتعذيب وخير شاهد على ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾[2].

---

(١) مقدمة رسالة ابن أبى زيد القيروانى.
(٢) آل عمران: ١٦٩.

قال صاحبى: ولهذا فإن الإمام الشافعى، وهو من أحد الأئمة الأعلام بأحكام الدين، وصاحب المذهب المعروف بإسمه، والذى قيل عنه؛ عالم قريش الذى ملأ طباق الأرض علماً» كان يتبرك بزيارة قبر الإمام أبى حنيفة النعمان مدة إقامته بالعراق بعد موته، وهذا ثابت فى أوائل «تاريخ الخطيب» بسند صحيح. . وكان يقول: فى قبر موسى الكاظم[1] «إنه الترياق المجرب».

وسند هذه الصورة الحديث الصحيح الذى رواه ابن أبى الدنيا قال: حدثنا عبد الله قال حدثنا عبيد الله بن عمر قال حدثنا يزيد بن زريع عن حميد قال: قال أنس رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ: ﴿ **ذَلِكَ الَّذِى يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا** ﴾[2].

ومن المجرب أيضاً أن تزور قبر سيدى أحمد الدردير الموجود بالقاهرة وتقرأ له فاتحة الكتاب ثم تتوجه مباشرة دون أن تحدث أحداً حتى تصل إلى قبر الإمام الحسين رضى الله عنه وتقرأ له الفاتحة فإن الله عزوجل يجيب دعائك ويقضى حاجتك ببركتهما رضوان الله عليهما.

ومما قاله المقريزى: «قبر السيدة نفسية رضى الله عنها أحد المواضع المعروفة بإجابة الدعاء بمصر».

وكذلك قبر السيدة زينب رضى الله عنها بنت الإمام على كرم الله وجهه بالقاهرة من الأماكن المباركة المُجاب عندها الدعاء.

تشبهوا بالرجال إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرجال فلاح

ومحبة الأولياء تجارة لن تبور لما دل عليه قوله ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»، فمن أحبهم سعد بسعدهم، وفاز بفوزهم، ورُفع فى درجتهم، وصدق القائل.

---

(١) الإمام موسى الكاظم هو أحد الأئمة الإثنا عشر للشيعة.
(٢) الشورى: ٢٣.

عودٌ على بدء:

قلت: أما زلت تقصد التوسل بالصالحين؟

قال صاحبي: أما التوسل إلى الله تعالى بجاه أنبيائه عليهم الصلاة والسلام وأوليائه الصالحين فليس شركاً ولاحراماً ولاهو بدعة مستحدثة فى الدين، فإنما هو محبوب ومندوب إليه شرعاً.

قلت: إن كان عندك أدلة أخرى على مشروعيته فزدنى بها، قال: نعم.

وقد دل على مشروعيته الكتاب والسنة القولية والفعلية وعمل السلف الصالح عن الصحابة والتابعين إلى وقتنا هذا، قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴿٣٣﴾﴾[1] فيؤخذ من هذه الآية الكريمة أنه كمايكون إكرام الأمة، ورفع العذاب عنها بسبب استغفارهم، كذلك يكون بسببه ﷺ وقد قال الله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا**﴾[2].

فلولم يكن التوسل صحيحاً لما كان هناك فايدة لقوله: ﴿**جَاءُوكَ**﴾ وقوله: ﴿**وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ**﴾.

ونحن نعتقد أن الأنبياء والأولياء أحياء فى قبورهم، وأن منزلتهم عند الله تعالى لم يطرأ عليها تغيير أوتبديل بل هم بعد الموت أشد قرباً من الله تعالى وأرفع مكانة عنده، وقد قالوا: «الولى كالسيف فى غمده فإذا مات سُلّ من غمده» وذلك لأن روحه فى الدنيا كانت مشغولة نوعاً ما بتدبير البدن وعوائق البشرية، فإذا مات زالت عنه هذه العوائق بالكلية، وبقيت روحه خالصة فى توجهها إلى الحق واقتباسها من أنواره القدسية فيقوى بذلك نورها وسلطانها، وتزداد أشعة أنوارها المنعكسة على من يلوذ بها من ذوى الحاجات وأرباب الإرادات، وقد أخبرنا الرسول ﷺ: أن حياته ومماته سواء؛ فى انتفاعنا بشفاعته، وعود بركاته علينا حيث قال فى الحديث الصحيح: «حياتى خير لكم تُحدثون وتُحدث لكم، فإذا مت كانت وفاتى خيراً لكم، تُعرض علىّ أعمالكم فإن

---

(١) الأنفال: ٣٣.

(٢) النساء: ٦٤.

وجدت خيراً حمدت الله تعالى، وإن وجدت غير ذلك استغفرت لكم» اللهم أجزه عنا خير الجزاء.

وقد أرشد رسول الله ﷺ إلى التوسل ووقع منه ومن صحابته، وعن تابعيهم كماسبق أن قلنا ونقول: فقد صح أنه دعا لفاطمة بنت أسد أم على بن أبى طالب رضى الله عنه وقال فى دعائه: «الله الذى يحيى ويميت وهو حى لايموت اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها، ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى فإنك أرحم الراحمين»[1].

وعن عثمان بن حنيف رضى الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ وهم جلوس معه فشكا إليه ذهاب بصره فأمره بالصبر فقال: ليس لى قائد وقد شق علىّ بصرى فقال له: ائت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل: «اللهم إنى أتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة، يامحمد إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى لتُقضى لى فشفعه فى، قال عثمان بن حنيف: فوالله ماتفرق بنا المجلس حتى دخل علينا بصيراً، كأن لم يكن به ضر»[2].

وتوسل الصحابة به ﷺ فى الإستسقاء وغيره ثابت فى الصحيحين. وتوسل عمر رضى الله عنه بالعباس بن عبد المطلب مذكور فى صحيح البخارى. ففيه عن أنس أن عمر رضى الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب. وقال: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا فيُسقون»[3].

قلت: وللمرحوم الشيخ الدجوى فى التعليق على هذه الحادثة كلام جميل يتلخص فى أن عمر لم يقصد بهذا الصنيع الإعلان عن أن التوسل لايكون إلا بالأحياء فقط، ولكنه قصد إلى أن التوسل يجوز بالمفضول والفاضل بدليل أن المسلمين كان فيهم علىّ رضى الله عنه، فى هذا الوقت وهو خير من العباس وفيهم عمر وهو أفضل بولايته أمر المسلمين.. على أن عمر كان يهدف دائماً أبداً

---

(١) أخرجه الطبرانى ووثقه ابن حبان والحاكم عن أنس رضى الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذى وصححه، والنسائى والبيهقى والطبرانى بأسانيد صحيحة.

(٣) وكان ما قاله العباس كما فى الفتح: اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يُكشف إلا بتوبة، وقد توجه القوم بى إليك لمكانى من نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث.

إلى عدم شيوع الفتنة فى صفوف المسلمين، فهو يأمر بعدم تدوين الحديث لئلا يختلط بالقرآن ويشتبه به، ويأمر بعدم إنتقال المحدثين إلى الأمصار لئلا يوجهوا الناس إلى الإشتغال بالحديث ومدراسته، ويكون ذلك صرفا لهم عن القرآن الكريم، ويأمر بقطع شجرة الرضوان التى كان ابنه عبد الله يستظل بظلها، ويتكىء إليها، لأنه خشى أن يتخذها المسلمون منسكاً للعبادة والطاعة.. وهذه الصلاة التى يرجو الناس بها المطر، خاف إن أبطأ عليهم الغيث أن ينزل ذلك بقدر النبى عندهم فيظنوا أن جاهه عند ربه قد تولى بموته، ولم يعد له من المزية ماكان له من قبل ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾**﴾[1].

قال صاحبى: دعنى ياصديقى أكمل حديثى، وأصل منه ماانقطع.

قلت: على الرحب والسَّعة.

قال: وروى الطبرانى والبيهقى والترمذى بسند صحيح عن عثمان بن حنيف أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه فى زمن الخلافة فى حاجة له، فكان لايلتفت إليه، فرجا عثمان بن حنيف أن يكلمه فى شأنه، فعلّمه الدعاء السابق، وهو: «اللهم إنى أتوجه إليك بنبيك.....إلخ».. فتوضأ الرجل وصلى ثم دعا به كما علمه، ثم جاء إلى باب عثمان بن عفان فأخذه الخادم، وأدخله عليه، فأجلسه بجانبه على «الطنفسة» ثم قضى حاجته، وقال له: إذا عُرضت لك حاجة فأتنا، فلما قابل الرجل عثمان بن حنيف قال له: جزاك الله خيراً، ماكان ينظر فى حاجتى، كلمته فيها؟ فقال له: والله ماكلمته، ولكن كنت عند رسول الله ﷺ فدخل عليه أعمى وذكر الحديث السابق.

وقصة الإمام مالك مع المنصور التى قال له فيها حينما سأله: أأستقبل القبلة وأدعو، أم أستقبل قبر النبى ﷺ وأدعو؟

---

(١) آل عمران: ١٤٤.

فقال له: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام، مشهورة ومذكورة فى كتابى الشفا والمواهب وغيرهما.

وكان معاوية رضى الله عنه يستسقى بيزيد بن الأسود ويقول: اللهم إنا نستسقى بخيرنا وأفضلنا، إلى آخر ما يطول إستقصاؤه، وفيما ذكرناه الكفاية..

التوسل أحد الأسباب العادية:

ولايخرج التوسل فى الحقيقة عن كونه أحد الأسباب العادية التى جعلها الله تعالى مقتضيات لمسبباتها، وقرن بينهما فى الوجود مع كون التأثير له وحده جل وعلا، فيكون حكمه حكم بقية الأسباب العادية التى يُكره فيها الإفراط والمغالاة كما يقع من بعض الجهال، والتفريط كما يقع من أهل القسوة والجفاء المنكرين لخواص أولياء الله تعالى الثابتة، وكراماتهم الواقعة بالمشاهدة والعَيَان؛ إذ ليس من المستحيل،بل ولا من البعيد أن يُعلق الله تعالى قضاء حاجة من الحوائج، كشفاء من مرض أو سعة فى رزق على التوسل بأحد عباده الصالحين!!

وفى هذه الحالة لايمكن أن يحصل المطلوب من الشفاء وغيره من غير طريق التوسل بحال، لا لأن التوسل مؤثر بذاته، ولا لأن الولى أوالنبى هو الذى خلق الشفاء وأوجده بل لما سبق فى علمه تعالى من تعليق هذا الشفاء على التوسل المذكور.

فائدة التوسل ثابتة بالنص واقعه بالحس:

وأما فائدة التوسل فهى ثابتة بالنص واقعه فى الحس لماسبق فى الأحاديث المروية من قول أنس فى قصة استسقاء عمر رضى الله عنه بالعباس فيُسقون.

ومن قول عثمان بن حنيف فى حديث الضرير الذى توسل بالنبى ﷺ.. فوالله ماتفرقنا حتى دخل علينا بصيراً كأن لم يكن به ضُر.. إلى غير ذلك ممايحول بيننا وبين سرده خشية الإطالة، وقد عاد على الفقير شخصياً من بركات أهل البيت وغيرهم من أولياء الله تعالى ما لا يمكننى أن أرتاب فيه؛ إذ لايقبل شكا ولا تأويلاً، حتى لولم يكن لدىّ من الأدلة على صحة التوسل إلا هذا لكان كافياً عندى!!

على أن الدعاء والطلب ـ على شرط أن يكون موجهًا إلى الذى يجيب الدعاء، ويكشف البلوى، ويدفع الضر، ويصرف السوء، ويرحم الخلق ـ لا يخلو أن يكون فى هذا المكان الطاهر، والساحة النقية، والبقعة المباركة، وهى المسجد، وفيه يقول من اجتباه ربه واصطفاه «إذا دخلتم ـ أو أتيتم ـ رياض الجنة فارتعوا» وقد سُئل: ما رياض الجنة؟ فأجاب بأنها المساجد... وأى مكان يستجيب الله فيه الدعاء أزكى وأنقى من هذا المكان ـ ويُخيل إلى أن جماعة ممن لا يروقهم هذا الكلام سيقولون.. فإذا كان الولى مشكوكًا فى مكانه، أو تعددت أمكنته.. أيدعو الداعى حينئذ ثم يكون دعاءه مظنون للاستجابة.. والجواب على ذلك بالتسليم أيضًا، لأن بعض العلماء قالوا إن للرجل الصالح أكثر من روح واحدة، وبناء على هذا يكون للحُسين رضى الله عنه مزار بكربلاء ومصر من غير نكران، وهذا القول قاله جماعة من شراح البخارى، وقد كان النبى ﷺ يحدّث أصحابه بأن من غلبت عليه طاعة من الطاعات دخل الجنة من باب خاص، وأن الصائمين يدخلون من باب يُسمى « الريّان» وهكذا... وعندئذ قال أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه: بأبى أنت وأمى يارسول الله.. هل على من يدخل من تلك الأبواب كلها من حرج؟ فقال له: «لا وأرجو أن تكون منهم».. وقالوا إن الرجاوة من الرسول الله ﷺ محققة... فأبو بكر رضى الله عنه سيدخل من هذه الأبواب كلها لا محالة فى وقف واحد.. وصوّروا ذلك بأن للولى أكثر من روح واحدة... ولا يضيرنا التصديق بذلك كله لأنه لا يترتب عليه محال، ولا يلزم من حصوله منكر، وبخاصة إذا علم أن اليوم الآخر لا يجرى على نواميس الحياة، ولا يخضع لأساليب الدنيا، ولا يتمشى مع نظامنا الذى ألفناه.. وأن الحديث القدسى يقول «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

وإلى هنا نستطيع أن نقول للذين يهاجمون الأولياء، ويحاربون زيارتهم، ويمنعون التردد على أمكنتهم، والاقتباس من نورهم، والتملى من الخير الذى فى ساحتهم، وما يفيض الله فى رحابهم، إنكم تجاهدون فى غير عدو، وتقطعون

سَبْحكم لعمل لا يجدى، وتجلبون لأنفسكم مقت جماعة من المسلمين لا يرضيهم إلا أن يرددوا ما يقول قيس بن الملوح:

أمرُّ على الديار ديار ليلى ... أُقبّل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حُبّ الديار شغفن قلبى ... ولكن حُبّ من سكن الديارا

قلت: وكلمة الفضل فى ذلك كله أن الذى يتوسل برجل طيب له عند الله منزله، ولايجعله شريكاً لله فى الخلق والتكوين، والقدرة والإرادة ولكنه يتوسل بمكانته الملحوظة، وقدره المرموق لأنه عمل مايستحق به أن يكون له عند ربه هذا الجاه، فضلاً عن كون ذلك إغراء بإقتفاء آثاره، وتتبع أخباره، والإقتداء به، والمحاكاة له.. والدين الإسلامى لم يحظر القدوة الصالحة بحال من الأحوال، وهذا هو الرسول الكريم يحث عليها ويغرى بها، إذ يقول: «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم».

وكذلك التربية الحديثة تقول بها، وترجع الفضل الأول فى نبوغ النابغين وعلم المخترعين، إلى اتخاذ القدوة، والجرى وراء المثل العُليا من رجال الفكر والمعرفة والإجتهاد والسبْق، ومن هؤلاء الذين دوى بهم التاريخ، وطنطنت بأسمائهم الصحف والمجلات، وكان لهم بين معاصريهم امتياز جعلهم أهلاً لهذا الفضل الذى نالوه، والدرجات التى حصلوا عليها:

لسنا وإن أحسابنا كرمت ... يوماً على الآباء نتكل

تبنى كما كانت أوائلنا ... تبنى ونفعل مثل مافعلوا

استطراد

اعلم وفقنى الله وإياك أن أول مقصد من مقاصد الإسلام تجريد التوحيد وإخلاص الدين لله وحده قال الله تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢، ٣] وقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ

الدِّينَ ﴾ [البينة: ٥]، وتجريد التوحيد لا يتم إلا بالتوجه الكلى لله من غير الثفات إلى غيره.

ولهذا حرص الرسول ﷺ على أن يربط القلوب بالله وحده، فكان يُعلّم أصحابه التوكل على الله والثقة به، والالتجاء إليه فيقول: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأُمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك».

ويقول: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما تُرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا» كما كان يحذرهم أن ينهكوا حُرمة التوحيد ويجنّبهم كل ما هو ذريعة إلى الشرك فحظر عليهم الحلق بغير الله فقال: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآياتكم، فمن كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت».

وروى البغوى عنه ﷺ: «من حلف بغير الله فقد أشرك».

بل كان يصحح ما كان يقع فى كلا منهم من أغلاط، حماية لجانب التوحيد.

روى الطبرانى فى معجمه: «أنه كان فى زمن النبى ﷺ ـ منافق يؤذى المؤمنين فقال الصدّيق: فوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق

فجاءوا إليه فقال: إنه لا يُستغيث بى، وإنما يستغاث بالله

وقال بعض الأعراب: «ما شاء الله وشئت».

فقال: أجعلتنى لله ندًا بل ما شاء وحده».

وما دام التوحيد الخالص هو جوهر الإسلام ولبّه كان كل ما أتصل به من صميم الإسلام، وكل ما خالفه، أو كل ذريعة إلى الشرك باطل دخيل فى دين الله.

وعلى هذه القاعدة نقول: إن التوسّل ما دام لم يمس جانب التوحيد فهو توسّل مشروع.

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقد جاء فى السُّنة أمثلة لدعاء الله بأسمائه وصفاته نورد بعضها:

١ ـ عن معاذ بن جبل: أن النبى ﷺ سمع رجلاً يقول: «يا ذا الجلال والإكرام. فقال: استجيب لك فسل تُعطه». (رواه الترمذى وحسّنه).

٢ ـ وعن أنس أنه ﷺ سمع رجلاً يدعو (اللهم أنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام، يا حى يا قيوم) فقال النبى ﷺ: «لقد سأل الله باسمه الأعظم» (رواه أحمد وأصحاب السنن: أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وصححه الحاكم وابن حبان).

٣ ـ وعن بريدة أنه ﷺ سمع رجلاً يدعو ويقول: «اللهم أنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد». فقال: والذى نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذى إذا دُعى به أجاب وإذا سُئل به أعطى». (رواه أصحاب السنن وصحّحه الترمذى وغيره).

ويلحق بهذا التوسّل الإيمان بالله والعمل الصالح، جاء فى القرآن حكاية عن أولى الألباب ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وفى الصحيحين حديث النفر الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، فتوسل كلٌ منهم بأعظم عمل عمله فارتفعت الصخرة ونجو.

ومن هذا القبيل أن يطلب من الحى أن يدعو له، وقد كانت الصحابة يسألون الدعاء من النبى ﷺ، وعن عمر أنه استأذن رسول الله ﷺ فى العُمْرة فأذن له وقال: «فلا تنسنا يا أخى من دعائك» (رواه الترمذى).

وفى البخارى أن عمر استسقى بالعباس وقال: «اللهم إنا كنا إذا أجذبنا نتوسل إليك بعم نبيّنا فاستقنا فيُسقون».

ومعنى التوسّل به أن يدعو هو وهم يدعون معه، وقد مرّ بك ما قاله العباس رضى الله عنه فارجع إليه.

ونظير هذا ما أخرجه النسائى وابن ماجه والترمذى وصحّحه: أن أعرابيا أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله: إنى أُصبت فى بصرى فادع الله لى.

فقال له النبى ﷺ: «توضأ وصلّ ركعتين ثم قل:

«اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد إنى استشفع بك فى ردّ بصرى، اللهم فشفّعه فى. وقال: فإن كان لك حاجة فمثل ذلك، فردّ الله بصره».

والظاهر أن الأعرابى إنما توجه إلى الله بدعاء النبى له، ودعائه لنفسه كما أشارت إلى ذلك الروايات.

أما إذا كان التوسّل يخدش جانب التوحيد فهو باطل مردود.

كأن يتوسل بأحد من الخلق أو بحق أحد من الصالحين أو بجاهه معتقدًا أن للتوسّل به تأثيرًا فى الحصول المطلوب.

وإنما كان هذا مجانبًا لعقيدة التوحيد، لأن التوحيد يقتضى ألا فاعل ولا مؤثر إلا الله وحده، وأن إرادة الله لا تتأثر بشىء، والله يفعل شيئًا لأجل أحد أما أذا كان المتوسّل لا يعتقد أن للمتوسّل به تأثيرًا فى الحصول المطلوب.

بل يرى أن الكل من الله وحده، وأن ما يفعله إنما هو مجرد مباشرة أسباب كمباشرة الأسباب العادية، فهذا لا يخدش عقيدة التوحيد ولا يصل إلى حد الشّرك.

عن عقل بن يسار رضى الله عنه قال: قال أبو بكر رضى الله عنه وشهد به على رسول الله ﷺ قال: «ذكر الشّرك فقال: هو أخفى فيكم من دبيب النمل، وسأدلك على شىء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره تقول: «اللهم أنى أعوذ بك أن أُشرك بك فيما أعلم واستغفر لما لا أعلم تقولها ثلاث مرات».

ويجب أن لا ينفك المسلم فى كل أوقاته عن هذا الدعاء، فإن كل جزئيات الزمن لا تخلو من فتن هوج، فلا بد أن يكون دائم الاستحضار لهذا الدعاء لينفى عن نفسه درن الشرك الخفى أعادنا الله تعالى منه.

وعن ابن جريج قال: بلغنى أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر: «الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل. فقال أبو بكر: هل الشرك إلا ما عُبِد من دون الله؟ قال: يا أبا بكر الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل: إن من الشرك أن يقول الرجل ما شاء الله وشئت، ومن الند أن يقول الرجل: لولا فلان لقتلنى فلان، أفلا أدلك على ما يذهب الله عنك به صغار الشرك وكباره؟ قال: بلى يا رسول الله، قال تقول كلا يوم ثلاث مرات: «اللهم إنى أعوذ بك أن أُشرك بك وأنا أعلم، واستغفر لما لا أعلم».

وعن حذيفة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قد كنت أكره لكم أن تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد».

ثم ماذا بعد..؟

لقد كثر الخلاف وتشعّب الجدل بين العلماء فى هذا النوع.. كالتوسّل فمن مانع.. ومن يجوز؟!

والذى تشهد له الأدلة، أن الحظر مُقدّم على الإباحة سدًا للذريعة، وبُعْدًا عن مظنة الشبهة، لا سيما فى هذه الناحية العقدية التى تمس صميم الدين.

وعندنا من الأدعية المأثورة الصحيحة.. التى لم يختلف فيها ما يُغنينا عن هذه البدع المحْدَثة التى تعلّق الناس بها حتى حُجِبُوا عن نور النبوة، وطمسوا جمال التوحيد.. فإن قلت فما معنى الكلام الذى ذكرتموه سابقًا؟

قلنا إن أهل اليقين لا تضرهم الأسباب والله أعلم بالصواب.

ثم قال صاحبى: تضمن حديثنا ـ أين منهجين مختلفين فى قضية واحدة فماذا ترى؟

قلت: أرى، والله أعلم أن كلا المنهجين على حق.

قال: وكيف ذلك؟

قلت: ذلك أمرٌ شَرْحه يطول...